مفهوم الإغتراب
في رواية: «عائد إلى حيفا»
{غسان كنفاني}

د. غانم أحمد حسين
كلية الإمام الأعظم الجامعة

المقدمة

إنّ الاغـتراب ظاهـرة اجتماعيـة قديمـة ، يعرفهـا الانسـان منـذ أن وطـأت قدمـاه الارض وما زالت تصاحبه بمآسيها الى يومنا هذا ، لأنها ضمن طبائعه ،بـل هي دافـع ضروري من دوافعـه ، وهي ظاهرة غريبة تتشكل وتتميز من انسان الى اخر . وبأشكال وصفات سلوكية عديدة .

ويتجسـد مفهوم الاغتراب بمظاهـر العزلة الناتجة عن إحسـاس الفرد بأن الآخرين لا يواكبونه فكرياً ، وعما يسـود المجتمع من ثقافات مشوهة وتضليل سياسي وتضارب في الآراء والافكار ، والموضوعية الناتجة عن وعي آنواع الفرد بوجود الآخرين كشيء مسـتقل عن نفسـه ، أو عن تمييز في إختصاصه أو تفـرده بمجال معين لذلك نجد أن الاديب إتجه الى هذه الظاهرة منذ اقدم العصور .

ولها أهميةكبيرة في إنتاجه الآدبي المنظوم والمنثور لأنها تمثل حياة المجتمـع الذي يعيش فيه ويتكلم بلسان حاله ويقدم للناس معاناته واضطهاده .

ومن هنا جـاء بحثي بعنوان (مفهـوم الاغتراب في رواية عائد الى حيفا لغسـان كنفاني) وقسـمته على ثلاثـة مطالب تسـبقهما مقدمه وتمهيـد عن اصل الاغتراب في اللغة والاصطـلاح والحس المغترب لـدى (غسـان كنفـاني) ويختتـم البحـث بخاتمة تضمنـت اهم النتائـج و قائمة بالهوامـش و قائمة بأهم المصـادر. تضمن المطلـب الأول الاغتراب المـكاني التي تولـد لدى الأديب جـراء الاضطهاد القسري من قبـل العدو الصهيوني والمطلب الثاني تضمـن الاغـتراب الزمـاني . مثـل غربـة الزمـان وتداخلـه بين الماضي والحاضر. والمطلب الثالث تنـاول الاغتراب النفسي والذي يعد نتيجة النوعين السـابقين وهو أقسى انواع الاغتراب وأكثرها تأثيراً على الانسان .

- **توطئة:**

١- مفهوم الاغتراب في اللغة والاصطلاح :

مفهـوم الاغـتراب: لغـةً : ورد لفـظ الاغتراب في المعجـمات اللغوية بمعنـى النزوح عـن الوطن ، والذهـاب والتنحـي عن النـاس وتوقـان النفس ، ويقولـون اغترب فلان إذا تـزوج الى غير أقربائه[١]. ورد لفـظ الاغـتراب في (معجم المحيـط) بمعنى غرب ، غاب ، كغرب ، وبعد واغترب تزوج من غير الاقارب[٢] .

اصطلاحاً : اختلف الدارسون في تحديد مفهوم دقيق لمعنى الاغتراب اصطلاحا نظراً لاختلاف استعماله في البحـوث الاجتماعيـة والدينيـة والدراسـات الفلسـفية والنشـاطات الثقافية والأدبية وغيرها من مجـالات الحيـاة المختلفة . أمـا مظاهر الاغتراب عموماً فواحدة منها العزلة والشـكوى والبحث عن ..... خاصـة .لذلك فهو إنسـانية وجـدت بوجود الانسان ، ولعله من أكثر المفاهيم التصاقاً بالإنسان، (فهو من طبيعته بل يمكن القول انه دافع من دوافعه

الاساسية ، يختلف من إنسان لآخر ومن مجتمع الى آخر ذلك لأنه يتلون بطبيعة صاحبه وبالمجتمع وما يحكمه من أنظمه ومؤسسات ، وبطبيعة العصر وما يحتويه من قيم واعراف ومعارف) [٣] لقد وجدت فكرة الاغتراب في أوربا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لدى منظري فكرة العقد الاجتماعي اهتماماً بالغاً ، ولعل (جان جاك روسو) هو أول من استعمل فكرة بمعناها السياسي عندما نحدث عن الاغتراب حقوق الفرد والطبيعة لصالح المجتمع [٤]. وقد انعكست هذه الظاهرة على الادب فغدا الاغتراب موضوعاً بارزاً فيه ، شأنه شأن مختلف أوجه النشاط الانسان إذ أصبح من المألوف في الوقت الراهن بصورة متزايدة أن نسمع عن تفسير الحياة عصرنا الحالي من خلال مفهوم الاغتراب [٥]. فيعمل الأديب علي نقل رؤيته واثر التحولات المحيطة به في بنيته النفسية والفكرية الامر الذي جعل بعض الباحثين يميلون الى اعتبار بأن كل رائد في الفن والأدب يحتوي بذور اغتراب في بنيانه الداخلي وأيضاً في كل عمل أدبي أو فني لابد أن نعثر على جذور الاغتراب منذ أقدم العصور حتى الآن [٦].

٢- غسان كنفاني مغترباً :

ولد غسان كنفاني في مدينة (عكا) الفلسطينية في التاسع من نيسان عام ١٩٣٦ ، وشهد سقوطها وهو في سن الثانية عشرة ، وخرجت أسرته كما خرجت الكثير من الأسر والعوائل الفلسطينية من أرض الوطن الى المنفى و في التاسع من نيسان عام ١٩٤٨م ، وقعت مذبحة (دير ياسين) و انتقل هو وعائلته في المنفى من طبقه اجتماعيه الى طبقه اجتماعيه اخرى ، فقد كان والده محامياً في (عكا) وتوقف عن عملة بعد النزوح . فأصبح (غسان) وإخوته يعملون بمختلف الاشغال ليعيلوا الأسرة المكونة من تسعة أفراد ، ولكي يكملوا تعليمهم ، ولذلك نشأ (غسان) على وعي بين القضية الوطنية و الحياة القاسية التي يعيشها الشعب من فقر وعوز لذلك تفتحت قريحته وواعيه عن الاغتراب المادي. مكان صدر نتيجة رحيله عن وطنه وتنقله بين الأقطار العربية . واغتراب نفسي ومعنوي نتيجة الاغتراب المكاني الذي عاناه بسبب النزوح والتهجير القسري من قبل العدو الصهيوني على الأرض فلسطين العربية المحتلة . عمل كنفاني منذ شبابه المبكر في النضال الوطني ، وبدأ حياته العملية معلماً للتربية الفنية في مدارس وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين (الاونروا) في دمشق ، ثم انتقل الى الكويت عام ١٩٥٦ حيث عمل مدرساً للرسم والرياضة في مدارسها الرسمية . وكان في هذه الاثناء يعمل في الصحافة ،كما بدأ إتاجه الأدبي في المدة نفسها . إنتقل الى بيروت عام ١٩٦٠، حيث عمل محرراً أدبياً لجريدة (الحرية) الأسبوعية ، ثم اصبح عام ١٩٦٣ رئساً لتحرير جريدة (المحرر) كما عمل في (الأنوار) (والحوادث) حتى عام ١٩٦٩ حين أسس صحيفة (الهدف) الأسبوعية وبقي رئيسا لتحريرها

حتى إستشهاده في ٨ تموز عام١٩٥٢ على يد جهاز المخابرات الاسرائيلي (الموساد) عندما كان عمره ٣٦ عاماً بتفجر سيارته في منطقة (الحازمية) قرب يروت . كتب (غسان كنفاني) بشكل أساسي بمواضيع التحرير الفلسطيني ، وهو عضو المكتب السياسي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، فأدبة كان متفاعلاً دائماً مع حياته وحياة الناس في كل ما كتب كان بصوره واقعاً عاشه وتأثره به [٧].

المطلب الاول: الاغتراب المكاني:

يؤدي المكان أهمية كبيرة في حياة الأنسان ، اذ يُعد اهم اركان الحياة الذي يمارس فيه تكوينه ، فالمكان الذي هو عبارة عن رقعه من الارض تتوافر فيها مقومات الحياة من ماء وكلأ لكي يتمكن الانسان من الأستقرار فيها والمحافظة على حدودها لنفسه ، وقد عرف الأنسان العربي بقوة أرتباطه بالمكان الذي ولد فيه و عاش فيه . ولا يدفعه على ترك هذا الموضع الإّ قوه قاهرة مثل نضوب الماء والكلأ أو الحروب والقتال الذي يضطر الى النزوح مما يؤدي الى الاغتراب عن مكانه قسراً .

فالمكان يعد مسرحاً لحركة الفرد في السلم والحرب، وقد قسم النقاد المكان الى نوعين (يقسم المكان الى ذاتي وموضعي في آن واحد ، فكرة ومادة فالمكان الموضعي شكل هندسي فيزيائي له أبعاد وحجوم وتمثله الجغرافية ، والمكان الذاتي فكرة ذهنيه مجردة تصدر عن رؤية فردية ، فيكون مكاناً متخيلاً تنتفي أبعاده الهندسية والجغرافية لتصبح أبعاداً غير متناهية فتكون ميداناً حضارياً للخيال...) [٨] ، كان المكان عنواً مهمشاً في النقد الروائي ، ولم يكن يحتل مكان مهمة كباقي عناصر العمل الروائي إذ لم نجد أيّاً من النقاد خصه بشيء منفرد بالدراسة والتحليل الى أن جاء (غاستون باشلار) ووقف عند جانب معين منه ، وهو (جماليات المكان) أو (تسوية المكان) وقام (بدراسة القيم الرمزية المرتبطة بالمناظر التي تتاح الرؤية السارد أو الشخصيات سواء في أماكن اقامتها كالبيت و الغرفة المغلقة أم في الاماكن المنفتحة الخفية أو الظاهرة المركزية أو الهامشية) [٩] . يمتلك المكان مكانه مهمة في بناء النص الروائي والسردي على وجه العموم وقد وصف ذلك بقوله (ميشيل بوتور): (أن قراءه الرواية رحله في عالم مختلف من العالم الذي يعيش فيه القارئ ، فمن اللحظة الاولى التي يفتح القارئ الكتاب ينتقل الى عالم خيالي من صنع كلمات الروائي ، ويقع هذا العالم في مناطق مغايرة للواقع المكاني المباشر الذي يتواجد فيه القارئ) [١٠] ، فالإنسان كما أسلفنا يتعلق بالمكان و يرتبط به إرتباطاً وثيقاً ويحث اليه ويحمل معه هم العودة الى جذورة اذا حدث واضطر الى الخروج منه قسراً بسبب الحروب أو النزاعات الداخلية التي تحدث فتتحول دلالة المكان من الالف الى العداوة ومن الإنفتاح الى الإنغلاق . فالمكان لا يحمل صفه معينه وثابته فيه وانما تتحول دلالته باعتبار ما يحدث فيه من حوادث و امور خارجه

عن المألوف ،فالوطن هــو بعادته مكان ألفه ولكن سرعان ما يتحول هذا المكان الاليف الحنين الذي تعمــد فيه الشــخصية الى مــكان اغــتراب وعداوة وضيــق بمجرد ما تحــدث فيه حوادث غــير عاديه كالقتــال والحروب والكوارث الطبيعية ، فهو يخرج مــن مكانه ويحمل معه هم العــودة الى المدينة بعد اســتقرار أحوالها . وفي رواية (عائد الى حيفا) نجد فيها ان الانســان يغترب عــن مدينته التي عاش فيها وهو يحمــل معه كل انــواع الألم و اليأس والقنوط ولكن بالمقابل نجد أن الشخصية مع كل هذا الألم ترجع وتحمــل العزم والطمــوح الى العودة في يوم ما الى هذه المدينة التي اصبحت مثل الحلم . ومن الامثلــة ، التطبيقية التي تعــود الى الالم الاغتراب المــكاني الذي صورة (غســان كنفــاني) في روايته بقولــه :(طول الطريق كان يتكلــم و يتكلم و يتكلم تحــدث الى زوجته عن كل شيء عن الحرب و عن الهزيمــة وعن بوابة مندلبو التــي هدمتها الجرارات وعن العدو الذي وصل الى النهر والقناه ومشــارق دمشــق خلال ســاعات ، وعن وقف اطــلاق النار والراديــو ونهب الجنود للاشــياء والاثــاث ، ومنع التجــوال ، وابن العم الذي في الكويت يأكله القلق ، والجار الذي لم اغراضه وهرب ، والجنود العرب الثلاثــة الذين قتلــوا واحدهم يموت عــلى تله تقع قرب مستشــفى اوغســتا فكتوريــا ، والرجال الذين خلعــو بزاتهم وقاتلوا في شــوارع القدس ، والفلاح الــذي اعدموه لحظة رواه قرب اكبر فنادق رام الله ، وتحدث عن زوجته عن امور كثيرة اخرى)[١١] ، قدم (غســان كنفاني) في هذا المقطع مــن الرواية لوحة فنية صور فيها واقع شــعب بأكمله ومدينة فهو يبين للقــارئ مدى الألم والضيــم والغربة التي حصلت لهذا الشــعب المكلوم . دمار عام وتفجير واغتراب وتعدي على الحقوق دون وجه الحق . فالمكان هنا تحولــت دلالته من مكان الألفــة والمحبة والحنين الى مكان الغربة والعداوة والألم . فالروائي في هذا المقطع قدم للقارئ حجم المعاناة والغربة المكانية الذي تعرض له هذا الشــعب وهــو في قلب مدينة . ومــن النماذج التــي وضح فيها (غســان كنفاني) الاغتراب المكاني في قوله (وحين كان يقود سيارته وســط شــوارع حيفا كانــت رائحة الحــرب ما تزال هنــاك ، بصورة ما غامضة ومثيرة ومســتفزة ، وبدت لهُ الوجوه قاســيه ووحشــية ، وبعد قليل اكتشف انه يسوق ســيارته في حيفا دون أن يشعر بأي شيئ في الشــوارع قد تغــير كان يعرفها حجراً حجــراً ومفرقاً وراء مفــرق ، فلطالمــا شــقق تلك الطرق بســيارته الفورد الخضراء موديــل ١٩٤٦ . إنه يعرضها جيداً والان يشــعر بأنه لم يتغيب عنها عشرين سنة ، وهو يقود ســيارته كما كان يفعل كما لو أنه لم يكن غائباً طوال تلك السنوات المريرة وأخذت الاحياء تنهال في راســة كما لــو انها تنتفض عنهــا طبقة كثيفة من الغبار وادي النســناس شــارع الملك فيصل ساحة الحناطــير ،الحليصــة ،الهادار)[١٢] ، أ ن إحســاس الأديب بالمــكان يختلف عن الآخريــن ، فالمكان

يمثـل لدية نقطه إثارة تمـس وجدانه وكيانه ، وتعود بـه الى أصولـه الممتدة عـبر التاريـخ . لذلك عبر (غسـان كنفاني) في هذه الصورة شـخصية (سعيد) و زوجتـه (صفية) الذيـن اضطـرا الى الخروج من مدينتهما (حيفا) قـسراً . وبين (كنفاني) مدى الألم والغربة التي عاشها المجتمع الفلسطيني المنكوب في تلـك الحقبة من الزمـن و هذه العائلة على وجه الخصـوص . فهـذه العائلة تعيش الغربـة المكانية الفعليـة والمجازيـة الفعليـة هي النـزوح القسري بسبب العدو الغاشـم الظالم والغربة المجازية هي الاغـتراب داخل البلـد والمدينة فالإنسـان يعيش داخل مكانه الأصلي ولكن مقيد بقيود فرضت عليه من قوى خارجية ظالمة لا يستطيع تغييرها أوردها . ومن الصور الأخرى على ظاهرة الاغتراب المكاني في روايـة (عائـد الى حيفا) قول الـروائي : (وتبعها سـعيد ، وبجانبـه صفيـة ، بخطوات مـترددة بطيئة وأخذا يميزان الأشـياء بشيء من الدهشـة ، لقد بدأ لهُ المدخل أصغـر قليلاً ، مما تصوره و أكثر رطوبة واسـتطاع أن يرى أشـياء كثيرة أعتبرهـا ذات يوم ، وما زالت أشـياؤه الحميمة الخاصـة تصورها دائماً ملكية غامضة مقدسـة لم يستطع أيا كان أن يتعرف عليهـا أو أن يلمسـها أو أن يراها حقـاً ، ثمة صورة للقدس يتذكرها جيداً مـا تزال معلقة حيث كانت ، حـين كان يعيـش هنا ، و على الجـدار المقابل في سـجادة شـامية صغيرة كانت دائماً هناك أيضاً) [١٣] صور (كنفاني) في هـذا المقطع الاغتراب المكاني أجمل تصوير إذ قدمة للقارئ وجعله يحمل الشفقة والخـوف على هذه العائلة التي بدأ لها منزلها وكانه غريـب عنها . إذ بين (كنفاني) في هذا المقطع حال عائلة (سـعيد وصفية) عندما رجعـا الى بيتهما بعد عشرين سـنة من الغربة والتهجير والضياع فوجدت هـذه العائلة أن بيتهـما لم يكن كـما كان . أذ يبدو لهـما وكان كل شيء قد تغير الممـرات والحانات والمداخـل والاشـياء كلها لم تكن عـلى طبيعتها . وبذلك تحس هذه العائلة أن عودتها لا جدوى منها . فتتحـول دلالة المكان الأليـف الحنين الى مكان قسـوة وألم وعداوة بعد ما غير العدوان الغاشم كل معالمـه وتفاصيلـه . فتفضل الاغـتراب على حياة البؤس والشقاء في ضل سطوة العدوان و الإحتلال الصهيـوني الظالم . ونجد أن هناك صورة اخرى في هذه الرواية عـلى غربة المكان لكي تكتمل الصورة لدى المتلقـي وتجعل القارئ يـرى ويحس حجم المعاناة إذ يقول (كنفاني) في مقطع آخر من الرواية: (أتعرفـين ما هو الوطـن يا صفيـة ؟ الوطن هو ألا يحدث ذلك كله .

وسألته زوجته متوترة بعض الشيء .

ماذا حدث لك يا سعيد ؟

لا شيء . لا شيء أبداً . كنت أتسـاءل فقط . أفتش عن فلسـطين الحقيقية . فلسطين التي هي أكثر من الذاكرة ، أكثر من ريشة الطاووس ، أكثر من ولد ، اكثر من خرابيش قلم رصاص على جدار السلم . وكنت أقول لنفسي ما هي فلسـطين بالنسبة لخالد ؟ إنه لا

يعرف المزهرية ولا الصورة ولا السلم ولا الحليصة ولا خلدون ، ومع ذلك فهي جديرة بإن يحمل المرء اصطلاح ويموت في سبيلها ، و بالنسبة لنا انا وانت مجرد تفتيش عن شيء تحته غبار الذاكرة)[١٤] لقد كانت غربه المكان اساساً انبتت عليه رواية (عائد الى حيفا) فقد انتقال (سعيد) وزوجته (صفية) الى العيش خارج مدينة قسراً . ليسقطوا ضحية الجشع والاستغلال والظلم . فقد صور (كنفاني) في هذا المقطع حالة الوطن الضائع الوطن الذي اصبح مثل الحلم يدور في عقول واذهان اهله وساكنيه . فهو يتساءل مع زوجته عن موطنه الاصلي الحقيقي يتساءل عن فلسطين الحقيقية قبل الاحتلالها من قبل العدوان الصهيوني والفتك والسلب والنهب الذي تعرضت له وتهجير اهلها ونزوحهم الى بلدان في شتى دول العالم . واسكان اناس وبشر جمعوا جميعاً من دول وتوطينهم في فلسطين . ولم ينظر الى ذكريات مؤلمة لواقع بائس يدور في عقول ابنائها وهم يحلمون للعودة في يوم ما . لذلك ترى ان الروائي قدم للقارئ صورة واضحة على الغربة المكانية التي تعرضت لها عائلة سعيد وزوجته صفية بعد عودتهم الى بلادهم .

- **المطلب الثاني: الاغتراب الزماني:**

شغل مفهوم الزمان النقاد قديماً وحديثاً ، وسلكوا فيه طرقاً شتى ، إنه يشكل خطاً متواصلاً ، تنازعت عليه قوى ثلاث في الماضي ، والحاضر ، والمستقبل، (ويؤثر عن الشكلانيين الروس انهم كانوا من الاوائل الذين أدرجوا مبحث الزمن في نظرية الادب ، ومارسوا بعضاً من تحدياته على الاعمال السردية المختلفة)[١٥] .

لقد ظهر الزمان السردي في الدراسات الحديثة من تفريق الشكلانيين الروس[١٦]. بين زمن المتن الحكائي . و هو الزمن الذي يفترض ان الاحداث قد جرى فيه فعلاً ، وزمن المبني لحكائي وهو الوسائل التقنية للزمن الذي يخلق الابهام الزمني فضلاً عن الوقت الضروري لقراءة عمل سردي معين، وهذا الزمن يتحكم فيه المتلقي والقارئ . بدل على هذا أن زمن المتن الحكائي هو زمن تاريخي في حين أن الزمن المبنى الحكائي هو زمن جمالي ،[١٧] يشوه الزمن الاول و يخلخل بنيته ثم يعيد بناءه من جديد على أسس جمالية تسعى الى خلخلة توقعات ،[١٨] القارئ و تكون لديه احساس بالجديد والانتقال من المألوف الى غير المألوف ، لأن الزمن الاول يمثل ما هو كوني ومألوف في حين يمثل الزمن الثاني ما هو تقني يتضح ويتمظهر في التتابع المنظم للوصف والتداخل .[١٩] يتضح لنا من هذه المقدمة النظرية عن مفهوم الزمن في العمل الادبي ان احساس الانسان بالزمن يرتبط بنحوه البدني و تطوره العقلي ، فيمر الانسان بمراحل زمنيه تبدأ بالطفولة والفتوة والشباب والنضج والكهولة والشيخوخة . وفي كل مرحلة زمنية يقترن بها حدث معين يتذكره الانسان و يستعيده ويحن اليه ، ويتمنى أن تعود أيامه وهو يعلم أنها لا تعود ويبث ما في

نفسه من حسرة وألم في فنه وادبه . فيحس بذلك غربة زمنية يشتكي بها حدث هذا الزمان الذي تغير فيه كل شيء الانسان والمكان وغيرها من متطلبات الحياة فيقف موقف العداء والنفور من هذا الزمان . واحياناً يكون موقفه سلبياً فيحقق الانسان موقف الاستسلام والانقياد للأمر الواقع نظراً لقوة الظرف الذي يمر به وتمرده وجبروته . ورواية (عائد الى حيفا) خير مثال على ذلك الاغتراب الزمني . إذ صور فيها (غسان كنفاني) ابشع انواع الاغتراب الزماني في ضل سطوة العدوان الصهيوني على اراضينا في فلسطين . قدم (كنفاني) في هذا العمل الأدبي صورة للعالم عن الألم والحرمان والفقد الذي تعرضت له هذا الشعب المكلوم ، إذ أضطر الى الاغتراب قهراً عن أرضه فعاش في زمان غير زمانه بعد ما كان يدخل بأرق ثواب والعز والنعيم. و من اللوحات التي رسم فيها (غسان كنفاني) صورة عن واقعه الزماني المغترب قوله : (- ما هذه الفلسفة التي لم تكف عنها طوال النهار ؟ الأبواب والرؤيا وأمور أخرى ، ماذا حدث لك ؟ - ماذا حدث لي ؟ قالها لنفسه وهو يرتجف ، ولكنه تحكم بأعصابه وعاده يقول لها بهدوء - لقد فتحو الحدود فورا انهو الاحتلال فجأة وفوراً ،لم يحدث ذلك في اي حرب في التاريخ ، أتعرفين الشيء الفاجع الذي حدث فيه نيسان ١٩٤٨، والان بعد لماذا؟ لسواد عينيك و عيني ؟ لا . ذلك جزء من الحرب انهم يقولون لنا تفضلوا انظر كيف اننا أحسن منكم واكثر رقياً عليكم أن تقبلوا أن تكونوا خدماً لنا معجبين بنا ولكن رأيت بنفسك ،كان بوسعنا ان نجعلها احسن بكثير .

- اذاً لماذا اثبت .

ونظر اليها بحنق ، فصمتت .

كانت تعرف ، فلماذا تسأل ؟ وهي متى قالت له أن يذهب ، فطوال عشرين سنة تجنبت الحديث عن ذلك ، عشرين سنة ، ثم ينبثق الماضي كما يندفع البركان)[٢٠] بدأ الراوي في هذا المقطع بإسترجاع ذكريات مؤلمة حدثت سابقاً فعلى الرغم من هدوء الأوضاع في المنطقة والسماح لهم بدخول بلدهم الإ أنهم لم يحسوا بذلك فعلاً . بسبب غربة الزمان الذي يعيشون فيه . غربة زمانية كبيرة جداً . كل شيء قد تغير لم يكن الزمان نفسه الذي ترك فيه بلاده منذ عشرين سنة لذلك جسد (غسان كنفاني) الغربة الزمانية على لسان شخصياته الحقيقية في الرواية (سعيد) وزوجته (صفية) فنجد أن (سعيد) يتحدث بسخريه مع زوجته (صفية) عن مأساوية الواقع المؤلم الذي يعيشون فيه . و من النماذج الأخرى في رواية (عائد الى حيفا) والتي تمثل الغربة الزمانية ما نجد في هذا المقطع : (وعندما جاء الماضي بكل ضجيجه ولأول مرة منذ عشرين سنة تذكر ما حدث بالتفاصيل و كأنه يعيش مرة اخرى . صباح الاربعاء، ٢١ نيسان ، عام ١٩٤٨ .

كانت حيفا مدينة لا تتوقع شيئاً رغم انها كانت محكومة بتوتر غامض . وفجأة القصف من الشرق

مـن تلال الكرمل العاليـة . ومضت قذائف المورتر تطير عبر وسـط المدينة لتصب في الأحياء العربية. وانقلبت شـوارع حيفا الى فوضى ، واكتسح الرعب المدينـة التي أغلقـت حوانيتها ونوافـذ بيوتها كان سـعيد في قلـب المدينـة ، حيـث بـدأت اصوات الرصـاص والمتفجـرات تملأ سـماء حيفـا ، كان قـد ضل حتى الظهر غير متوقـع ان يكون ذلك هو الهجوم الشـامل) [٢١] بدا (سـعيد) في هذا المقطع يسـترجع ويستعيد ذكريات منذ عشرين سنة فعندما عـاد الى حيفا وصل الى مشـارف المدينة بدأ يعيد شريـط ذكرياته وتسلسـلها في ذاكرتـه . فهو يعرف بكل تفاصيل ذلك اليوم (١٩٤٨/٤/٢١) هذا اليوم الذي انقلبت فيه كل الموازين الاخلاقية في العالم . فبدا العدوان الغاشم يصب غضبه على هذه العوائل العـزل دون وازع مـن دين او عـرض او قانون فهذا الشريـط الذي صـورة وحفظه (سـعيد) في ذاكرته بشكل غربة زمانية مؤلمة ضلت عالقة في باله مدى الحياة ، وذلك في ظل تأثيره السـلبي والنفسي على شخص (سـعيد) على الرغم من فك الحصار على المدينة و صار بإمكانه الرجوع الى بيته ومأواه .

ومن الشـواهد الأخرى التي يوضـح فيها (كنفاني) الاغـتراب الزماني في هذه الرواية مـا نجد في هذا المقطع : (ووقف الرجل وقد تغير وجهه ، ثم قال - أنا من يافا من سـكان المنشية . و في حرب ١٩٤٨ هدمت قنابل المورتر بيتي لسـت أريد أن أروي لك الآن كيف سـقطت يافـا وكيف انسـحبت ، أولئك جـاءوا لينجدونا ، لحظة المأزق . ذلك الشيء راح الان .. المهـم اننـي حين عدت مـع المقاتلين الى المدينـة المهجـورة اعتقلونا وأمضيـت فترة طويلة في المعتقـل . ثم حين أطلقـوني رفضت أن أغادر يافـا ، وقد عـثرت على هذا البيت و أسـتأجرته من الحكومة) [٢٢] .

عرج (غسـان كنفاني) على شخصية (فارس اللبدة) [٢٣] هذه الشـخصية التي ماتـت من الاغتراب على مختلف اشكاله وانواعه وهي لا تقل الماً عن (سعيد) وعائلته فقد تم تهجـيره قسراً من مدينة وعندما عاد وجـد نفسـه مغتربا في مدينة وهذا هـو أقسى أنواع الاغـتراب عندما يجد الانسـان نفسـه غريباً داخل داره ومدينتـه ولكن لا يسـتطيع أن يغـير من الواقع شـيئاً . لذلك عندما رجع (فارس) الى داره وجد أن هناك عائله تسـكنه وتحل فيه . ولكـن هذه العائلة فلسـطينية منكوبـة كانت الأخرى التـشرد والضياع والألم الذي عاناه كل من (فارس) و (سـعيد) . فبدأ ذلك الرجل الذي يسكن في داره يشرح له الأسباب التي جعلته يسكن في بيته فبدأ يسترجع مع (فارس) ذلك اليوم الذي أسـتيقظت المدينـة على أصوات المدافع والقنابل ، إنه حرب حزيران (١٩٤٨) ذلك اليوم الذي بقي عالقاً في ضمير كل أبناء ذلك الحي لمـا لاقوه من فجيعة ودمار حل بهم وخلده التاريخ عبر العصور والازمان . لذا جسـد (كنفاني) في هذا المقطع من الرواية صورة واضحة عن الغربة الزمانية التـي حلت بالمدينة وأهلهـا وخصوصاً عندما عاد

بعد عشرين سنة .

• **المطلب الثالث: الاغتراب النفسي:**

ويسميه علماء النفس الاغتراب الذاتي ويتمثل في زوال الارتباط بين الذات وما عليه الانسان أو ما كان عليه ، بما في ذلك ارتباط حياته الحاضرة بماضيه ، وبؤرة هذا الاغتراب هو البعد عن مشاعر المرء ومعتقداته وطاقاته .[٢٤] وذلك أن الانسان حين يرصد سوء الواقع الذي يعيش فيه ، ويفقد فيه كل آماله وطموحاته التي يتطلع اليها . ويعجز عن تحقيقها ، يتمرد على ذلك الواقع ويرفضه ، فيعمد الى الهجرة والهروب من ذلك الواقع المزري الذي وقف ضد طموحاته ، فيصنع لنفسه عاملا نرجسيا متفائلاً منفصلاً عن الواقع الفعلي تبعاً لذلك الاغتراب .[٢٥]

وتتجلى مظاهر الاغتراب النفس في شعور طاغ بالألم والحزن واليأس والعجز والعزلة الاجتماعية ويتميز المغترب بالقلق والاكتئاب ، مع احساس باللاواقعية والفراغ والسأم والسخط ، وغالباً ما يكون في سلوكه عدائياً مع الاخرين وتتفاعل هذه الابعاد فيما بينها ، وقد يزداد شعور الفرد ببعد او اكثر من هذه الابعاد .[٢٦] فالاغتراب النفسي نتيجة ، لما يحدث للفرد من اضطرابات نفسيه وعقلية وما يحس فيه من غربة في العالم وفتور وجفاء في علاقته بالآخرين . فالانفصال عن الذات والواقع و شعور الانسان باختلافه عن الاخرين وافتقاده الاحساس بالعلاقة بينهما ، ومن ثم انعدام القدرة في التمرد على الواقع والاحساس السلبي تجاه المجتمع الذي يعيش فيه إكتشاف انعدام قيمة الحياة كل هذه الأمور تؤدي الى العزلة والاغتراب عن الذات عن الخارج .[٢٧] و هذه الدرجة من الاغتراب لا تحدث فجأة . و ماهي الاحالة او نتيجة لحالات اغترابية سابقه لها قد اصابت الانسان وأفقدته الثقة بالمكان والزمان الذي يعيش فيهن. فمصطلح الاغتراب هنا يحمل دلالة على احوال نفسية وعقلية تتفاوت درجة قوتها ، فقد يعني مجرد السرحان والشرود الذهني الناتج عن إهتمام الأنسان بأمور معينه ، تبعده عن ذاته وبيئته بها عن نفسه كما قد يعني فقدان الحس أو غياب الوعي كما يحدث في الحالات النفسية المرضية المتعددة .[٢٨]

ومن صور الاغتراب النفسي الذي وجدناها في رواية (عائد الى حيفا) والتي توضح فيها (غسان كنفاني) هذا المفهوم ما حددناه في هذا المقطع : (حسناً ، من اين نبدأ ؟ ولكنها ظلت صامتة ،وسمع صوتها الخافت يبكي بما يشبه الصمت ، وقدر لنفسه العذاب الذي تعانيه ، وعرف إنه لا يستطيع معرفة العذاب على وجه الدقة ، ولكنه يعرف أنه عذاب كبير ، ظل هناك عشرين سنة وأنه الآن ينتصب عملاقاً لا يصدق في أحشائها ، ورأسها ، وقلبها ، وذاكرتها ، وتصوراتها ، ويهيمن على كل مستقبلها واستغرب كيف أنه لم يفكر أبداً بما يمكن أن يعنيه ذلك العذاب ، وبمدى ما هو غارق في تجاعيد وجهها و عينيها وعقلها ، وكم كان معها

في كل لقمة أكلتها وفي كل كوخ عاشت فيه ، وفي كل نظرة رمتها على أولادها و علية وعلى نفسها والان ينبثق ذلك كله بين الحطام والنسيان والأسى ، ويأتي على ركام الهزيمة المريرة التي ذاقها مرتين على الأقل في حياته)[٢٩] . في هذه اللوحة الفنية التي قدمها (كنفاني) والتي رسم فيها صورة واضحة عن الحالات النفسية المتأزمة المريرة التي مرت بها هذه العائلة المنكوبة عائلة (سعيد وصفية) التي فقدت أبنها في اثناء التهجير والنزوح القسري على مدينة (حيفا) . هذه العائلة التي ظلت طوال عشر سنين تعيش بين الحلم والأمل من جهة واليأس والقنوط من جهة اخرى . أختلطت عليها المشاعر بين الإيجابي والسلبي ، فهي تحلم بالعودة الى بيتها ذات يوم وتسترد أبنائها الذين لم تستطع أن تنقذهم معها بسبب تداعي الأحداث المفاجئ . لذلك نجد أن الروائي في هذا المقطع قدم للقارئ صورة واضحة عن الاغتراب النفسي البشع والذي كان نتيجة للاغتراب المكان والزمان والروحي الذي تعرضت له هذه العائلة سابقاً . ومن الصور الأخرى على هذه الحالة النفسية ما نجده في هذا المقطع إذ يقول الروائي : (وحين نظر الى صفية راها ترتجف ، وشهد وجهها يميل بوضوح للإصفرار ، فخرج من الغرفة ، إذ أحس هو الآخر بدموع حارقة تسد حلقة ، ومنذ تلك اللحظة لم يكف إسم خلدون عن الدق في رأسه ، تماماً مثلما كان قبل عشرين سنة حين سمعه يدق المرة تلو الاخرى فوق الزحام المتدفق أمام مياه الميناء الباكية . ولاشك انه كان كذلك بالنسبة لصفية ، وقد تحدثا طوال الطريق عن كل شيء الإ خلدون ، وقرب بيت غاليم فقط إلتزم الصمت ، وها هما الآن ينظران صامتين الى الطريق التي يعرفانها جيدا و الملتصقة في راسهما كقطع من لحمهما وعظامهما)[٣٠] .

نجد في هذا المقطع من الرواية صورة أخرى من صور الاغتراب النفسي التي كانت نتيجة للاغتراب المكاني وفقدان الأشخاص والعائلة والمجتمع . فعندما فقد (سعيد وصفية) ولدهما (خلدون) و لم يستطيعا أن ينقذاه أثر الهجوم الصارم من قبل العدو الصهيوني على مدينة (حيفا) صار كل شيء لديهما غربه في المكان غريب والزمان غريب والأشخاص غرباء ، كل هذه مقدمه للاغتراب النفسي الذي أصبح ملازماً لهم . فقد فقدت هذه العائلة طعم الحياة والتمتع بملذاتها ، و هذا كله صورة واضحه للواقع المزري الذي مرت به العوائل الفلسطينية في ذلك الزمان وما آلت اليه ظروفهم من ألم وغربة وضياع . ومن حالات الاغتراب النفسي في رواية (عائد الى حيفا) ما نجده في هذا المقطع إذ يقول الروائي (و للحظة رغب في أن يقوم ويمضي فلم يعد يهمه أي شيء . ليكن خلدون ميتاً ، أو حياً ، لا فرق ، فحين تصل الأمور الى هنا فليس ثمة ما يمكن أن يقال ، و أنتابه غضب مهيض ومرّ ، وأحس أنه على وشك أن يتفجر من الداخل ، وليس يدري كيف سقط نظر على تلك الريشات

الخمس مـن ذيل الطاووس التي كانت مزروعة في الاناء الخشبي وسـط الغرفة ، ورآها تتحرك بألوانها الفذة الرائعة التي لا تصدق ، من هبوب نسـمة من الهواء إذ خلـت من النافذة المفتوحة وفجأة سـأل بفظاظة وهو يشـير الى المزهريـة)[٣١]. عندما يصل الانسـان الى مرحلة اليأس تنعدم عنده الاشياء . فلا يستطيع ان يميز بينها تختلط مشاعره ويصبح انساناً هامشـياً عابثاً . وهـذا ما حصل (لسـعيد و زوجته صفيـة) عندمـا اوى الى منزلهـما في مدينة (حيفا) بعد عشرين سنة من الاغتراب ، وصلت بهم الحالة النفسـية المغتربـة المتأزمـة الى مرحلـه اليأس من شـدة الواقع المؤلم الذي انصدم به وجد (سـعيد) ان كل شيء في مدينـه ومنزلـه قد تغـير فضلاً عن العائلة اليهودية التي اسـتولت عـلى منزله . وولده الذي تغيرت فطرته واصبح يديـن بالديانة اليهودية ليس هذا فحسـب ،بل أصبح جنديـاً قاتل أهله في صفوف العـدو اليهودي الصهيوني بعد ما تربى في احضان هـذه العائلـة اليهودية . وتـشرب بعاداتها وتقاليدهـا التي تختلف جذرياً عن تعاليم الإسـلام الحنيـف . كل هذه الأمـور اجتمعت لتخلف حالة من الاغتراب النفسي الذميم لدى (سـعيد وصفية) فعـلى الرغم مـن عودتهما الى منزلهـما في (حيفا) وبإمكانهم الحصول عليه مرة أخرى ،الإ أنهم فقدوا تلك الروح الحنينة التي كانت تجمعهم به .

❊ ❊ ❊

الخاتمة

لقد حاولت في بحثي هذا دراسـة مفهوم الاغتراب في أدب غسـان كنفـاني وروايـة (عائـد الى حيفا) نموذجاً. وقد توصلت الى نتائج عديدة أهمها:

١- لقـد تضمن مفهـوم الاغـتراب دلالات عديدة تطورت بتطور الزمان واختلفت باختلاف الثقافات. فالاغـتراب متعدد الـدلالات والمظاهر و تعود في نشأتها الى المجتمع الذي نشأ فيه .

٢- نشـأ (غسـان كنفاني) في بيئة مليئـة بالأحداث منذ ولادتـه . فتعود على أن تكون رواياته معبرة عن المجتمـع والأحداث التي تقع فيه . اي تعد نوعاً ما عن الخيال واتجه الى الواقع .

٣- كانت ثيمة الاغـتراب واضحه في جميع أعماله الادبيـة . فنجـد أن الـروائي أكـد عـلى الاغتراب المـكاني والزماني الذي تأثـر المجتمع بهما نتيجة الظلم الواقع عليه من العدوان الصهيوني .

٤- كان الاغـتراب النفسي نتيجـة حتمية للاغتراب الزماني والمكاني . إذ نجد أن الأزمة النفسـية تتولد بعد معاناة شـديدة تعرض لها الفرد من طرق ظالمة وقعت عليه .

٥- عالـج (غسـان كنفـاني) في رواياتـه الكثير من الأمور التي تتعلق بمجتمعه الذي يعيش فيه ، إذ بين للعالم ما يحصل من ظلـم وتهجير وإقصاء ونزوح قسري تعرض له هذا الشعب المظلوم .

٦- كانت جميع أعماله تحمل أملاً متفائلاً في الرجوع الى بلده يوماً ما ، فهو على الرغم من الألم والأسى الذي تحمله أعماله نتيجة ما يحصل في بلاده ، الإ إننا نجد أن هناك أملاً في العودة الى بلاده وتحريرها من العدوان الظالم .

❊ ❊ ❊

الهوامش

١- ينظر ، لسان العرب ، أبن منظور ، ١٠ ، ٣١ .
٢- ينظر ، (القاموس المحيط) الفيروز ابادي : مادة غرب .
٣- الطرية والحنين في الشعر الجزائري ، عمر بو قرورة ، منشورات جامعة بائنه ، د. ط ، د.ت :١٣ .
٤- ينظر ، الاغتراب في التنظيمات الاجتماعية ، شتا السيد علي ، مكتبة الاشعاع الفنية ، الاسكندرية د. ط ، ١٩٩٧ : ٣٢ .
٥- الاغتراب ، شاخت ،ترجمة كامل يوسف حسن ،بيروت المؤسسة العربية للدراسات ،١٩٨٠ :٥٦ .
٦- ينظر ، احوال الاغتراب الكافكاوي و رواية (المسخ) نموذجاً ، عالم الفكر ، ١٩٨٤ ، مج ١٥ ، ع ٢ ، ٨٥ .
٧- ينظر ، (رواية الرجال في الشمس) ، ينظر ، رواية (عائد الى حيفا) (غسان كنفاني)
٨- المكان في الشعر العرافي الحديث ، سعود احمد يونس : ١٢ .
٩- بنية الشكل الروائي ، القضاء - الزمن - الشخصية - حسن الجراوي : ٢٥ .
١٠- بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ) ،سيزا احمد قاسم : ١٠٣ .
١١- رواية عائد الى حيفا ، غسان كنفاني : ٦ .
١٢- المصدر نفسه : ٩ .

١٣- المصدر نفسه : ٢٩ .

١٤- المصدر نفسه : ٧٧ .

١٥- بنيه الشكل الروائي : ١٠٧ .

١٦- ينظر ، نظرية المنهج الشكلي (نصوص الشكلانيين الروس) ، تزفيتان تودوروف ترجمة ، ابراهيم الخطيب : ٨٢ .

١٧- ينظر ، قضايا الرواية الحديثة ، جان ريكاردو ، مترجمة كامل عويد : ١٥ .

١٨- ينظر ، البنية السردية في روايات عبد الرحمن مجيد الربيعي ، سعد العتابي : ١٣٨ .

١٩- ينظر ، خطاب الحكاية ، جيرار جينين ، ٤٥ .

٢٠- رواية عائد الى حيفا : ٨ .

٢١- المصدر نفسه :١١ .

٢٢- المصدر نفسه : ٥٧ .

٢٣- ينظر المصدر نفسه :٥٠ .

٢٤- ينظر ، الاغتراب ، ريتشارد شاخت : ٢٠٥ .

٢٥- ينظر ، الاغتراب - الانسان المعاصر وشقاء الوعي ، فيصل عباس : ٣٠٢ .

٢٦- ينظر ، الاغتراب في الشعر الاموي ، فاطمة محمد حميد السويدي : ١٦٠ .

٢٧- ينظر ، الاغتراب سيرة ومصطلح - محمود درجي : ٣٥ .

٢٨- ينظر ، المصدر نفسه : ٣٦ .

٢٩- رواية عائد الى حيفا : ١٠ .

٣٠- المصدر نفسه : ٢٥ .

٣١- المصدر نفسه : ٣٣ .

المصادر

١- إغتراب الإنسان المعاصر وشقاء الوعي،فيصل عباس،دار المنهل اللبناني،٢٠٠٨م.

٢- الأغتراب سيرة ومصطلح ، محمود رجب،دار المعارف للطباعة والنشر ، القاهرة ،١٩٨٦م.

٣-الإغتراب، شاخت، ترجمة، كامل يوسف حسن، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات،١٩٨٠م.

٤- الاغتراب في التنظيمات الاجتماعية ، شتا السيد علي ، مكتبة الاشعاع الفنية الاسكندرية ، د.ط ، ١٩٩٨ .

٥- الإغتراب في الشعر الأموي،فاطمة محمد حميد السويدي،مكتبة مدبولي،القاهرة،ط١، ١٩٩٧م.

٦- الغربة والحنين في الشعر الجزائري،عمر برقروة،منشورات جامعة باتنة،د.ط،د.ت.

٧- بناء الرواية،دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، سيزا أحمد قاسم،الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٨٤ م.

٨- البنية السردية في روايات عبد الرحمن مجيد الربيعي، سعد العتابي،رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، كلية التربية.

٩- بنية الشكل الروائي، الفضاء-الزمن-الشخصية، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط٢، ٢٠٠٩ م.

١٠- حول الأغتراب الكافكاوي ورواية(المسخ)

إنموذجا،عالم الفكر،١٩٨٤ ،عدد٢ .
١١- خطاب الحكاية،جيرار جنيت،ترجمة ،محمد معتصم وآخرون،المجلس الأعلى، القاهرة،ط٢، ١٩٩٧م.
١٢- رواية رجال في الشمس ،غسان كنفاني،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، ط١، ١٩٦٠م.
١٣-رواية عائد الى حيفا،غسان كنفاني،مطبعة أفندينا،د.ت.
١٤- القاموس المحيط،الفيروزآبادي، تحقيق مكتب تخقيق التراث في مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، بيروت،ط٨ ، ٢٠٠٥م.
١٥- قضايا الرواية الحديثة، جان ريكاردو، ترجمة، كامل عويد العامري، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ٢٠٠٤ م.
١٦-لسان العرب،إبن منظور،دار صادر،ط١، ١٩٩٠م.
١٧- المكان في الشعر العراقي الحديث،سعود أحمد يونس.
١٨- نظرية المنهج الشكلي نصوص الشكلانيين الروس،تزفيتان تودوروف،ترجمة إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت،ط١، ١٩٨٢م.

❊ ❊ ❊